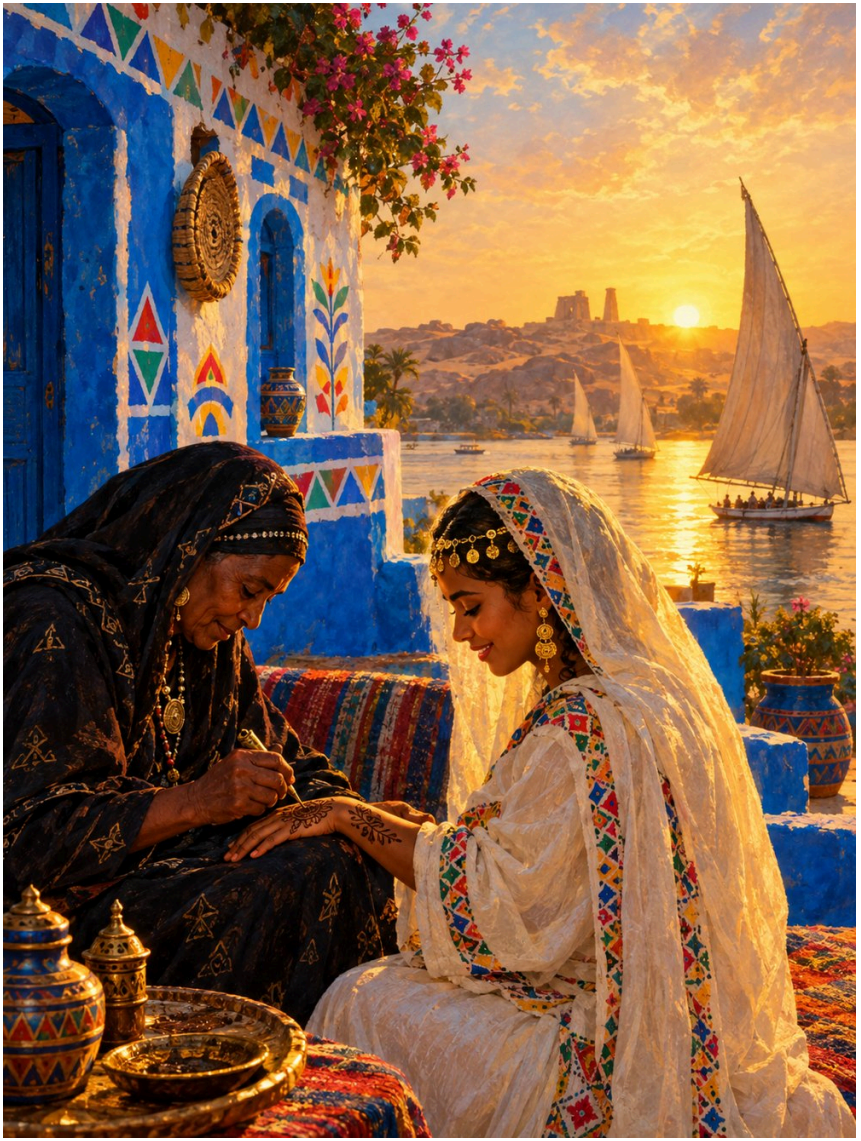


حنّاء العروس النوبيّة

حمادة حامد محمود نور الدين

قبل زفاف نور بليلةٍ واحدة، رسمت الحنّاءُ على كفّها خريطةً لم تطلبها.

كانت الجدّة أمّ حسن تجلس تحت المشربيّة في بيتهم الأزرق على ضفّة النيل بأسوان، وأمامها صينيّةٌ فيها مخروطُ الحنّاء وكوبُ ماءٍ بالليمون والسكّر. وقد رسمت منذ ستّين عامًا كفوفَ كلّ عروسٍ في القرية النوبيّة، ولم تُخطئ مرّةً في وردةٍ ولا غصن. لكنّ يدها هذه الليلة كانت تتحرّك وحدها.

قالت نور وهي تضحك: «يا جدّتي، لقد طلبتُ نقشة اليمام والنخلة».

«وأنا لم أرسم يمامًا»، قالت الجدّة بصوتٍ غريب. «انظري».

نظرت نور. على باطن كفّها اليمنى خطوطٌ دقيقة تتعرّج كنهرٍ صغير، وعند منتصفه دائرةٌ مفتوحة كعين، وفوقها رمزٌ صغير يشبه هلالًا فوقه نخلة. وتحت الخطوط، بحروفٍ نوبيّةٍ قديمة لم تقرأها نور منذ طفولتها، سطرٌ واحد.

«ماذا يقول؟»

لم تجب الجدّة. كانت عيناها قد امتلأتا بالدموع. «هذه خريطةُ قريتنا القديمة، يا بنتي. قبل أن يغمرها الماء».

اهتزّ الهواء. فقد كانت نور تعرف الحكاية كما يعرفها كلّ نوبيّ: حين بُني السدّ العالي غرقت عشراتُ القرى تحت بحيرة ناصر، وانتقل الأهالي إلى كوم أمبو. وكانت جدّتها تقول دائمًا إنّها تركت هناك شيئًا لم تستطع حمله. لكنّها لم تقل ما هو.

«في ليلة الرحيل، سنة ١٩٦٤»، قالت أمّ حسن وهي تمسح عينيها، «دفنتُ تحت عتبة بيتي صندوقًا فيه خاتم أمّي وحنّاء زفافها، وقلتُ: لن أدعه للماء. وحين كبرتُ وسألتُ عن الصندوق، قال لي الشيوخ إنّ القرية كلّها صارت قاعًا لا يصل إليه أحد».

«ولماذا ترسم يدك الخريطة الآن؟»

«لأنّ الحنّاء لا تكذب». ابتسمت الجدّة ابتسامة طفلةٍ حزينة. «وربّما جاء وقتُ العودة».

في الفجر، قبل أن يستيقظ أحد، استأجرت نور مركبًا صغيرًا مع خطيبها كريم، وسارا على صفحة البحيرة الساكنة، وشعاع الشمس

الأوّل يلوّن الماء بلونِ النحاس. كانت نور تحمل في كفّها المفتوحة الخريطة التي لم تجفّ بعد، ولا تزال تنبعث منها رائحة القرنفل والليمون.

قال كريم، وهو ينظر في هاتفه: «لا أصدّق أنّني أفعل هذا. هذه مجنونة».

«أنت لا تؤمن بالحنّاء؟»

«أؤمن بك». ضحك. «وهذا يكفي لأصدّق أيّ شيء».

وفي طريقهما، عند آخر ميناءٍ صغير، اعترضهما صيّادٌ عجوز يصلح شباكه. نظر إلى كفّ نور المفتوحة، فرأى الخريطة، فسقطت الشبكة من يده. «من رسمها؟»، سأل بصوتٍ مبحوح.

«جدّتي، أمّ حسن».

«إذن هي لم تمت...». أغمض عينيه كأنّه يرى شيئًا بعيدًا. «أنا ابن جارتها. كنتُ طفلًا حين غرقت القرية. اسمعي يا بنتي: الذي ينزل إلى هناك يسمع نداءً جميلًا جدًّا. فلا تصدّقيه. اللمس فقط، لا النزول. أعدك أنّ الحنّاء تعرف الطريق».

شكرته نور، ولم تعرف أنّ هذه النصيحة ستنقذ حياة كريم بعد ساعات.

أبحرا ساعتين. ثم انتفضت نور فجأة: «توقّف!» فقد رأت هناك، قريبًا من سطح الماء، شيئًا يلمع. قبّةً صغيرة خضراء، تنكسر عليها الأضواء. مئذنةٌ قديمة، رأسها وحده خارج الماء كإصبعٍ يشير إلى السماء، وفي طرفها هلالٌ فوقه نخلة منقوشة.

«هذا هو الرمز!»

أطفأ كريم المحرّك. وفي السكون الكامل، سمعا ما لم يتوقّعاه: صوتًا يخرج من تحتهما، كأنّه غناءٌ بعيد. أصواتُ نساءٍ ورجال، ضحكات أطفال، دفّ يُقرع. هناك، في العمق، قريةٌ لا تزال تحتفل بعرس.

وللحظة، نسي كريم تحذير الصيّاد. خلع قميصه وأمسك حافّة المركب، وقال بصوتٍ غريب كالمنوَّم: «هناك أحدٌ يناديني باسمي. هذا صوت أبي. أبي الذي مات قبل أن أولد...». وكاد يقفز.

أمسكت نور بذراعه بكلّ قوّتها. «كريم! اللمس فقط، تذكّر!» وغرزت أظافرها في كتفه حتى انتبه، ثم ضغطت كفّها الملوّنة على جبينه.

فارتخى جسده وفتح عينيه مذهولًا، كمن استيقظ من حلم.

«ماذا حدث؟»

«لا شيء»، همست وهي ترتجف. «شيءٌ يحبّك أكثر ممّا ينبغي».

شحب وجه كريم. «هل تسمعين؟»

«نعم»، همست نور. «إنّها تنتظرنا».

نظرت إلى كفّها. الدائرة المفتوحة التي كانت في منتصف الخريطة بدأت تتلاشى من أطرافها، كأنّ الحنّاء تنصرف إلى مكانها الصحيح. وحين نظرت إلى الماء، رأت تحت المركب قبّةً أخرى، وبيتًا بعد بيت، وأزقّةً ملوّنة بالأزرق والأبيض كما في حكايات جدّتها، تمتدّ في أعماق خضراء شفّافة.

«أتحتاجين أن تغوصي؟»، سأل كريم بجزع.

«لا»، قالت وهي تضغط كفّها الملوّنة على سطح الماء. «الخريطة تقول: العتبة تحت النخلة، ويكفي أن تلمس الماء بحنّاءٍ من يدٍ تحبّ».

وحين لامست الحنّاءُ الماء، انتشر في الدائرة حولها لونٌ ذهبيّ دافئ، وارتفعت من العمق فقاعاتٌ صغيرة لامعة، تجمّعت فوق بعضها وتحوّلت إلى شيءٍ صلب. مدّ كريم يده، فالتقط من الماء صندوقًا خشبيًّا صغيرًا لا يتجاوز كفّ اليد، جافًّا تمامًا، مختومًا بخيطٍ أحمر.

وعاد الصمت. اختفى الغناء، وبقيت المئذنة تتأرجح قليلًا ثم تنساب ببطء في الماء، كأنّها أنهت عملها.

حين وصلا إلى البيت كانت الجدّة تنتظر على الشاطئ، وقد ارتدت أجمل ثيابها. أخذت الصندوق بيدين ترتجفان وفتحته. في داخله خاتمٌ ذهبيٌّ صغير، وخصلةُ شعرٍ مربوطة بشريط، وورقةٌ مطويّة كُتب عليها بخطٍّ طفوليّ مرتعش: «إلى حفيدتي التي لم تُولد بعد: كلّ بيتٍ يغرق، لكنّ الذي يُحبّ لا يغرق. لبسي الخاتم في عرسك، واذكري أنّ لك بيتًا لا يصل إليه الماء».

وضعت الجدّة الخاتم في إصبع نور، وهي تبكي وتضحك معًا. وفي المساء، في الحفل الكبير، حين ارتفعت الدفوف والأغاني النوبيّة وأطلّت العروس بفستانها الأبيض، لاحظ المدعوّون أنّ حنّاء كفّها لم

تنمحِ كما تنمحي عادةً بعد ليلة. كانت الخريطة لا تزال هناك، واضحةً كأنّها رُسمت للتوّ.

ولم تنمحِ بعدها أبدًا.

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app